

الاختلافات الزوجية

وأثرها في تربية الأولاد

البيت هو البيئة الاجتماعية الأولى التي يستقبلها الطفل في هذه الدنيا . فهو يجد فيها طرازا من الاجتماع له مبادئ معينة من الأخلاق والاقتصاديات ، كما يجد أسلوبا في العيش والمعاملة والذوق الفني واللغوي . وهو ينشأ على غرار هذه البيئة ويأخذ بأخلاقها وأسلوبها وذوقها . ويتلقى المؤثرات الأولى من والديه وإخوته ومن الخدم ومن الزائرين أيضا بدرجات متفاوت قوتها . فإن للآب مكانة كبيرة في نفس الطفل . ومثلها أو أقل قليلا للآم . ثم أقل من ذلك لسائر أعضاء الأسرة .

ثم هو في سنه الأولى لا يختلط إلا قليلا بالعالم الخارجي حيث المجتمع الأكبر . ولكن اختلاطه يزداد بتقدمه في السن فينقل تلك المؤثرات العائلية التي تلقاها في المجتمع الصغير إلى العائلة إلى هذا المجتمع الكبير . وهو ينظر إلى الغرباء بعيون أبويه ، وهو يعاملهم بالأسلوب الذي عرفه في البيت . فإذا كان هذا الأسلوب سيئا أو إذا كانت هذه العائلة في نقار لا يتقطع أو إذا كانت الخصومات تشب ولا تنهد إلا بوسائل العنف ، فإن هذا الطفل يشب وهو يجب هذا الطراز من العيش هو الطراز المألوف في كل مكان آخر . فهو يعامل الناس بمثل المعاملة التي رآها في العائلة ، وهو حين يجد اختلافا بين العالم الخارجي وبين البيت يلتزم أسلوبه القديم الذي يشق عليه أن يتجزد منه . وذلك لأن أخلاقه التي تعلمها في البيت أيام طفولته قد انحدرت إلى الشعور فثبتت وتأصبت كما هو الشأن في كل ما نتعلم أيام الطفولة . أما ما يتعلم بعد ذلك من المجتمع الخارجي فيبقى وكأنه اقتناع عقلي فقط لا يتصل بالشعور . ولكنا نحن لا نبعث بالعقل وإن اقتنعنا به بقدر ما نبعث بالشعور . ومن هنا الأثر العظيم الذي تحدثه البيئة المنزلية في الطفل لأنها تعين له طراز الأخلاق الذي سيسير عليه في المجتمع . ولسنا نجزم بأن هذا الطراز لن يتغير وإنما نقول إنه من الثبات والرسوخ بحيث يحتاج إلى مجهود عظيم عند ما نحاول تغييره .

أعتبر هذا الذي قلنا في المثال التالي :

طفل ماتت أمه عن مهده أو طلقت ثم تزوج أبوه، وشاء الحظ السيء أن تكون زوجة أبيه كارحة له ، فهي تضطهده وتؤثر أولادها عليه وتكلفه من المشاق ما يعجز عن أن يتصرف لنفسه منها. فهو يرى هنا طرازا من الأخلاق وأسلوبا من المعاملة يحسبها عامين في المجتمع الخارجي . وقد كان يقابل كل حركة من زوجة أبيه بالكراهة والمقاومة السرية أو العلنية والخبث والتدبير في الظلام. فإذا شب لصقت به هذه الصفات وصار يعامل بها سائر الناس : يكذب ويداور ويناق ويصانع ، كأن كل فرد من المجتمع هو زوجة أبيه . وليس بعيدا وهو يقف إزاء الهيئة الاجتماعية هذا الموقف أن يتقلب مجرما في مستقبل أيامه .

بل هذا هو الذي يحدث لسوء الحظ في أغلب هذه الحالات . فإن الأطفال الذين يدخلون الإصلاحيات بعد أن تثبت عليهم تهمة التشرذ أو عقوق الآباء أو يقعون في جرائم مختلفة إنما هم في العادة أولاد حرموا من الأسرة السعيدة التي يسود الوئام فيها بين الزوجين . فصبي الإصلاحية هو في الغالب محروم من الأم إما بالوفاة وإما بالطلاق أو هو يرى كل يوم مشاجرات لا تنقطع بين أبويه يرافقها عنف أو سباب . وفي مثل هذه البيئة قد تعدد الزوجة إلى أوان من الدفاع تتخذ لها أساليب مختلفة في الظلام يقف عليها الطفل فتنبه ذهنه الصغير إلى أسلوب من الأخلاق لا يتفق ومنتحلة المجتمع .

ونحن نعرف أن التربية قد تكون بالتلقين نصحا وإرشادا وعظات يستمع إليها الطفل ، ولما نعرف أيضا أن هذا التلقين ليس له الأثر الذي تحدثه القدوة أو المثال . ومن هنا قيمة التربية المنزلية لأنها تربية القدوة والمثال أي أنها هي التربية التي تنزل إلى الشعور وتبعث على العمل . وحتى تفضل تعليم المعلم الذي يقوم على التلقين . فإن الطفل يكتسب من البيت تربية في حين هو لا يكاد يحصل من المدرسة على غير التعليم . والفرق عظيم بين الاثنين .

ومن هنا يتضح لنا الأثر السيء الذي تحدثه الاختلافات الزوجية في تربية الأطفال . فإن هذه الاختلافات إذا تفاقمت وأدت إلى العنف أو الفرقة بين الزوجين حيات الطفل للجريمة أو لما هو دونها من فساد الأخلاق الذي ينتج به المجتمع . كما أن هذا الطفل يعيش شقيا بما اكتسب من هذا الطراز السلوكي لأبويه .

وعكس هذا يحدث للطفل الذي يعيش في بيئة عائلية يسودها النظام والحب والتعاون والمجاملة . لأنه يتخاطب هذه الأخلاق جميعها فتعود استجاباته للمجتمع عند ما يشب قائمة على التفاهم . وهو عند ما تجابهه صعوبة يعمد إلى المعالجة السلمية لا إلى البطش والعنف لأنه

يرى في كل رجل أبا أو أخا كما يرى في كل امرأة أما أو أختا وعلى غرار ما نشأ في الوسط العائلي يعامل الناس جميعا . فهو يسعد المجتمع وينبعث الى خدمته كما يسعد نفسه ويحقق أغراضه بالطف الوسائل . والعبرة لنا أن نشعر بقيمة البيت الحسن في الاجتماع . فالتأخرس الأخلاق الاجتماعية الأولى في البيت إن شرفا فشر وإن خيرا فخير . ومن هنا اتبعت العظيمة التي تلتق على الزوجين . فانه يجب عليهما أن يظهرأ أمام الأطفال بأحسن المظاهر وأفضل الأخلاق . ويجب ألا يكون هذا عن رياء . لأن الطفل لا يخفى عليه ما يستره أبواه عنه . وهو لألفته لهما يدرك من نظراتهما الحقيقية المستورة التي لا يخفيها التكلف والتظاهر . فاذا شاء الزوج أن يكتسب ابنه منه الفضيلة فليكن قاضيا مجاملا مهذبا في غير رياء . ويعامل زوجته بالعطف والحب والتعاون . فان الطفل الذي ينشأ في هذه البيئة جديرا بأن يكون عضوا صالحا في الهيئة الاجتماعية ما

من وصايا العرب

من كلام لعبد الملك بن صالح بوصى ابنائه :

احلم يا بني ، من حلم ساد ومن تفهم ازداد ، والحق أحل الخير فإن لقاءهم عمارة القلوب ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، والمزاج يورث الضغائن . وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والإسراف يبيد الكثير ، وشر ما صاحب المرء الحسد ، والبغية مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور ، عاتب من رجوت عتابه ، وفاكه من أمنت بلواه ، لا تكن مضحكا من غير عجب ، ولا مشاء الى غير أرب ، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه ، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله ، لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك ، فإنه إنما سعى في مضرتة ونفعك ، عود نفسك السباح وتخير لها من كل خلق أحسنه . فإن الخير عادة ، والشر حاجة ، والصدود آية المقت ، والتعلل آية البخل ، ومن الفقه كتمان السر ، ولقاح المعرفة دراسة العلم ، وطول التجارب زيادة في العقل ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رفق الكلام وفنقه ، شر القول ما نقض بعضه بعضا ، ومن سعى بالنيمة حذر البعيد ومقته القريب ، من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية ، ومن توانى في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له . غيب الأدب أحمد من ابتدائه ، سوء العلما يفسد العرض ويخلق الوجه ، ويحق الدين . وفيك من أنصفك وأخوك من عاتبك ، وشر يكك من وفى لك ، وصفيك من آثرك .